الحلقة الأولى

طرق الحج الإفريقية القديمة التقاليد والمغزى والمضمون

ا.د. حسن مكي محمد أحمد

لعل أول من عالج موضوع تقاليد الحج في غرب إفريقيا هو الدكتور المرحوم عمر النقر الذي جعل موضوع رسالته في الستينات في جامعة لندن تقاليد الحج في غرب إفريقيا وقامت بنشرها دار جامعة الخرطوم للنشر في عام 1972م [1].– وتلى ذلك ورشة عمل عقدتها اليسكو في الخرطوم عن ذات الموضوع ، ثم تلا ذلك محاولة لعمل فلم سينمائي ، عقدت له عشرات الاجتماعات – ولكن لعل المؤتمر الذي نحن بصدده والذي جاء بمبادرة من مدير الجامعة البروفيسور ، كمال عبيد ، هو أول مؤتمر جامعة دولي يناقش هذا الموضوع من مختلف جوانبه.

تتمثل أهمية هذا الموضوع ، أنه يتداخل مع تقبل الأفارقة للدعوة الإسلامية ومع تاريخ إنتشار الإسلام في إفريقيا. وكذلك مع تداخل أمر الحج مع الصراعات السياسية والاقتصادية في إفريقيا وكذلك دور طرق الحج في ترقية التجارة والثقافة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط وشاطيء البحر الأحمر شرقا وغربا ، كما أن هذا المؤتمر يكشف عن التداخل والتمازج العرقي والروحي الذي أحدثه حراك الحج مابين الامة الإسلامية ، حيث تداخلت وتواصلت الجماعات الإسلامية والمذاهب الروحية والطرق الصوفية والقيادات والزعامات ، مما أدى إلى صهر الجماعة والتقارب بين المذاهب وتبادل الخدمات والخبرات الفكرية والروحية والمادية .

لانعرف متى بدأ الإنسان الإفريقي رحلته للحج – وهنا نعنى إنسان الممالك. الإفريقية وإلا فإن محور القاهرة / عيذاب وسواكن ظل متواصلا مع الحجاز وشاطيء البحر الأحمر منذ فجر التاريخ – ولكن تساءل عن مناطق الصراع الحضاري الساخنة في غرب إفريقيا وممالكها وصلتها بطرق الحج، ومع إن المصنفات التاريخية لا تسعفنا باجابات قاطعة ، ولكن من المؤكد أنه منذ القرن الحادي عشر الميلادي والخامس الهجري بدأ ملوك كانم وبرنو في شق طريقهم للحجم وان الماي دونيم غرق في عيذاب في طريقه للحج ربما في حجته الثالثة عام 1160م[2].

---

(1) Umer Al-Naqar,The Pilgrimage Tradition in west Africa ,Khartoum , Un .Press 1972

(2) المصدر السابق ، ص 28

وأن حجاج كانم قاموا بتمويل بناء مدرسة ابن رشيق في القاهرة في الفترة 1248/1253. وإذا كان حجيج غرب إفريقيا قد شقوا طريقهم للحج في شكل قوافل وأمراء وقواد جيوش وتجار وفقهاء ، وقراء منذ القرن الخامس الهجري، فنحن نحتفل في هذه الجلسة بمرور ألف عام هجري أو مايزيد على رحلة الحج من أقاصي غرب إفريقيا إلى وسطها سيناء والبحر الأحمر – ولعل المسلم في نيجيريا أو غرب إفريقيا أو وسطها حينما يحتفل بمرور أكثر من ألف عام على اقتحامه الأهوال وقطعه امسافات وعبوره الأنهار والبحار لأدء ركن الإسلام الخامس وإكمال مطلوبات عقيدته ، يكون قد حسم موضوع الهوية الإفريقية الزنجية منذ قبل ألف عام .وضحى في سبيل تاكيد هذه الهوية ويصبح الحوار المطروح حول الهوية الإفريقية محلولا ومعلوما منذ ما يعادل الألف عام.

بل إن ممالك غرب إفريقيا إصبحت دار إسلام بينما كان سودان وادي النيل " السودان الحالي ممثلا في علوة والمقرة " دار عهد ، حيث لم يتم تحول السودان إلى دار إسلام إلا في عام 1504 م مع قيام سلطنة الفونج ، أي أن ممالك السودان الإسلامية سبقت إلى إحراز شرف دار إسلام قبل السودان الحالي بنحو خمسمائة عام.

ولعل أول شخصية سودانية هامة قامت بأداء فريضة الحج وأوقفت أوقافاً في الحرمين ماتزال السلطات السودانية تسعى لتفعيلها هو الشيخ عجيب المانجلك (3).الذي كثير من المذهبيات في المسجد النبوي من أعماله – وفتح الشيخ عجيب الطريق الصخري مابين سنكات وسواكن وكان أول من حج بالطريق الذي فتحه والشيخ عجيب هو في البرتكول نائب الملك ولعل حجته جاءت في أواخر القرن السادس عشر ، لأن الشيخ عجيب عمّر حتى بلغ المائة والأربعين عاما – وتولي المشيخة عام 1553 ولكن حجة كبير مشايخ السودان ، جاءت متأخرة خمسمائة عاما عن ملوك السودان الغربي ، ومتأخرة حوالي مائتي عام من ملك مالي منسا موسى الذي تبعه في رحلته للحج ثمانية عشر ألف من الخدام والحرس والتابعين وكان يحمل معه من الذهب مالا يقل عن عشرة أطنان – أي أن قيمة الذهب السوقية بتقديرات اليوم تفوق ال 550 مليون دولار وقد عد من ضمن أكثر من مائة غني مروا على التاريخ الإنساني. والعجيب أنه حينما دخل القاهرة أحدث فيها حركة تجارة وازدهارا وكذلك في الحجاج وأنفق هناك كل ما لديه حتى اضطر حينما عاد للقاهرة في عام 1334م /1335م أن يستلف من تجار القاهرة لإكمال رحلته على أن يسدد لهم بعد عودته – وقد سبقه عدد من

(3) ولو الشيخ عجيب المانجلك 1519 وتولي الملك 1553 وملك 45 عاما وهناك روايات مختلفة حول عمره وتاريخ ولادته وموته

ملوك مالي كساكورا وماي دوناماMai Dunuma Ibn Umm(1150- الذي اغتيل في طريق الحج 1150).

للأسف إن إنقطاع طريق الحج بسبب الغزو الإستعماري ، أدى إلى تجفيف منابع الثقافة الإسلامية ، لأن هذا الطريق كان طريق ثقافة ومثاقفة ومفاعلة حضارية حيث المصاهرات والزيجات وإنتقال الأفار والتجارة ، ولعله ، لو كان هذا الطريق سالكا لما رأينا الحروب الاهلية والصراعات القبلية ، لأن حركة الطريق تعطلت نتيجة للحدود السياسية الاستعمارية ونتيجة لخلق حركة إتجاه جديد للموانيء الإفريقية وبدلا من أن تتجه التجارة للداخل أصبحت موجهة للخارج ولحركة الموانيء الجديدة وحركة التجارة الحديدة وحركة الثقافة الجديدة ، حيث أصبحت إفريقيا مصدرا لملواد الخام وسوقا للمنتجات الغربية المادية والثقافية والروحية . كان طريق الحج يمثل مشروع الجماعة الإسلامية التعليمي والحضاري ويمثل القوة الناعمة للتواصل والتفاعل الإفريقي الإسلامي الممتد بين مثلث الأطلسي / المتوسطي وضفتي البحر الأحمر ولعل الإنقطاع لذي حدث في طريق الحج جعل وضع المنطقة مابين الأطلسي والبحر الأحمر أشبه بوضع المناطق المقفولة في جنوب السودان والنيل الازرق وجنوب كردفان ، ولعل ما يشير إلى ذلك أن بولاق التكرور في القاهرة معناها ميناء التكرور حيث خصص بولاق – وهي كلمة تركية تعني الميناء للتكارنة الذين يفدون على النيل إما بالصحراء أو عبر المتوسط- ولكن الآن التكرور تجارتهم عبر الأطلسي إلى أوربا والموانيء الأمريكي – بل حتى في السودان بلاد كدار مالي في عطبرة إنما استمدت اسمها من طريق حجاج مالي ولعل آخر هذه الهجرات هي هجرة ماي برنو وهو الأمير برنو الحفيد الخامس لمحمد بيلو إلى منطقة سنار .

أصبحت بلاد السودان الغربي برنو ومالي وصنغاي جزءا من دار الإسلام وأصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية كتب بها السعدي المتوفي 1655 وعبدالكريم المغيلي المتوفي 1503، وأحمد بابا المتوفي 1627 ، كما كتب اللهجات المحلية بالحرف العربي منذ ذلك الزمن البعيد وبينما حج العشرات من منلوك السودان الغربي ، فقط أدى ثلاثة من الخلفاء العباسيين فريضة الحج وأشهرهم الخليفة هارون الرشيد ، كما أن ملوك السوان الغربي ترددوا حجاجا على بيت الله الحرام أكثر مما فعل المماليك الذين حكموا مصر أكثر من ثلاثمائةعاما.

لم تك قوافل الحجيج مجرد ما يتبادر إلى الذهن من كلمة قافلة ، وإنما كانت مدنا متحركة فيها ربما ألف جمل ومثلها من البغال والحمير والخيل محملة بالزاد والكتب والبضائع ، وادى فتح طريق الحج إلى هجرات عربية مضادة ممثلة في القبائل العربية التي هاجرت في الدولة

الفاطمية على غرار هجرة الهلالين – ومما سهل الهجرة أن الطرق قد انفتحت والخبرات زادت كما نقل الحجيج خبراتهم عن أراضيهم وممالكهم ، مما سهلوا على العملاء والمغامرين والباحثين عن المرعي والمال.

وقد اعتبر السيوطي اسكاي محمد من مجددي القرن العاشر بل والإمام الحادي عشر في سلك المجددين– ص 4 (4).ومن حكام برنو ماي ادري أدي فريضة الحج عام 1575 واشتري منزلا وبستانا بالمدينة المنورة وتحصل على مدفع تركي وعاد به إلى مكة مما ممكنه من الإنتصار على خصومه .

وصاحبت حركة الحج ، حركة فكرية ، أدت إلى إنتشار المذهب المالكي على طريق الحج وجوز المختار الكنتي الإمتناع عن الحج لعدم الأمن ولم يؤدي المختار الكنتي على إتساع نفوذه في ماسينا وديار الهوسا كذلك لم يؤدي فريضة الحج عثمان دان فودي وشقيقه عبدالله بن فودي وإن فاضت كتبهم بفقه الحج كما فاضت أشعارهم بالحب والعشق للديار المقدسة.

وإذا اشتهرت إفريقيا بصبغتها الصوفية فإن المؤثر الأكبر في إنتشار التصوف إنما هو طريق الحج ، فالطريقة القادرية دخلت السودان على يد تاج الدين البهاري الذي التقاه تاجر سوداني من اربجي ودعاه لعلوة لتوطين طريق عبدالقادر الجيلاني ، كما أن عمر بن سعيد الفوتي المولود 1210هـ – 1795 أدى فريضة الحج في عام 1243هـ – 1828م ثم انقلب مجاهدا وأصبح همه في الحياة توطين النفس التجاني في السودان الغربي وادي توطين التجانية في غرب إفريقيا إلى إنتقالها إلى تشاد والسودان والجوار عن طريق الحجيج من الشناقيط وحجاج غرب إفريقيا – ومع إن الفوتي لم يعمر " مات عام 1864 " إلا أن جهاده ضد الفرنسيين أكسبه بريق مقاومة الأجنبي الغاصب .

واجهت التجانية في السودان الغربي ، أصحاب القوم من القادرية بقيادة الشيخ احمد لوبو توفي 1843 – وخلفه على السجادة القادرية أبنه الشيخ المتوفي 1853 في عاصمة اللوبين حمدنا الله ، وقد توغل الشيخ عمر الفوتي بقوة السلاح في عاصمة القادرية وفرض التجانية بديلا للقادرية. وإلي يومنا هذا أصبحت القادرية والتجانية تتقاسمان الأرض في السودان الغربي وأن كان النشاط والإتساع للتجانية ، لأن مزار التجانية في فاس حيث مرقد الإمام التجاني(5).كما أن دولتا المغرب والجزائر تتنافسان على دعم مسارات الطريقة التجانية ، باعتبار أن الجزائر هي مسقط رأس احمد التجاني والمغرب مدفنه. ويمكن أن نقدر أثر طريق

---

(4) The Tradition مصدر سبق ذكره

(5) ولد الشيخ أحمد التجاني 1150 هـ – 1737 وتوفي 1815 ودفن بفاس

الحج في مشروع الدعوة الإسلامية بالمقارنة بين إفريقيا التي مر بها طريق الحج – وإفريقيا التي لم يمر بها طريق الحج ومن ثم لم تعرف الإسلام ، حيث أن إفريقيا طريق الحج لاتوجد فيها أزمة هوية أو عقده تجاه الثقافة العربية الإسلامية ، بل إن أهل إفريقيا السودانية يحبون الإسلام والعروبة ولهم حنين واشتياق للحرف القرآني ، بينما على العكس تنعدم هذه الروح في السودان الذي لم يعرف طريق الحج وشكلت عقليته الثقافة الاستعمارية والمشروع التنصيري الحديث. "جنوب السودان حتى الجنوب الإفريقي".

الحلقة الثانية

أشرت إلى أن طريق الحج فتح حركة التواصل الإفريقي / الإفريقي، والإفريقي / الإسلامي ووصل مابين ثقافة وتجارة الأطلسي والبحر الأحمر.

أدى طريق الحج إلى نشر التنوير والتمدن ومعرفة الكتابة والنظافة والطهارة وتكثر العورة والوعي بالآخر والكشوفات الجغرافية وتقبل الأفارقة للحكمة الصوفية وتشكل الأهالي على الولاء للسجاجيد الروحية كما أدى طريق الحج إلى إنتشار المذهب المالكي ، كما أن طريق الحج أدى إلى إنتشار الأمن والسلامة ، ورحلة الحج في قوتها وتأثيرها ليست بأقل من التجربة الاستعمارية بكل جبروتها واستقلالها وفتوحاتها والتأسيس للفرانكفونية والأنجلوفونية أو غيرها بل ومثل طريق الحج ذات قوة الفتوحات الإسلامية ، بل إن اندثار طريق الحج ربما مهد للحروب الأهلية في دارفور وتشاد وغيرها.

الحج وانتقال المعارف الروحية والعرفانية

التصوف الهرمي والبناء الروحي والتنظيمي :

إنتقال تجربة أسبا الوسطي إلى العمق الإفريقي

بسط الاستعمار الفرنسي ابتداء من عام 1830 يده في الجزائر ومن هناك بدأ التغلغل في غرب إفريقيا ، بينما عهد الإنجليز والفرنسيون والمشروع التنصيري في التغلغل في مصر والسودان وعلى إمتداد النيل في حماية دولة محمد على وأبنائه وخصوصا في عهد الخديوي اسماعيل وحتى أصبحت مصر في قبضة الإنجليز ابتداء من عام 1882م .

ولعل أكبر مشروع تنويري ، شهدته أفريقيا في القرن التاسع عشر ومكن من التصدى السلبي للمشروع الغربي بشقيه الاستعماري والتنصيري هو المد الصوفي الجديد الذي مثلته ثلاث

مدارس هما التجانية ومدرسة السيد / احمد بن إدريس الفاسي والمدرسة السمانية – واستمدت الثلاث مدارس مشكاتها من طريق الحج.

فالسيد أحمد التجاني وتلامذته غرسوا تعاليم التجاني في مؤتمر الحج – وكذلك السيد احمد بن إدريس المولود بالمغرب والذي حج عن طريق مصر في عام 1898 والسيد أحمد البشير الطيب والذي كذلك حج في ذات الحقبة والتقى باستاذه محمد عبدالكريم السمان – والجامع بين السجاجيد الثلاث ، إنّها واجهت المشروع الاستعماري بآليات استعادة الثقافة الإسلامية بالتعليم والتنوير والذكر وحضور الله الكريم في القلب والتعلق بالنبي (ص) فيما عرف بالنور المحمدي والحب الإلهي والحب لإصحابه والبت والدوحة النبوية ، كما أفرغت طاقتها في التعليم والذكر وتحفيظ القرآن – ومع إنها لم تلجأ للعنف والمقاومة إلا أنها حصنت أتباعها والمجتمع من حولها من الثقافة الاستعمارية وحافظت على الأحكام الشرعية ، فيما يتعلق بالأحوال الشخصية من زواج وطلاق والحفاظ على العائلة كأساس للاجتماع، ونجحت في التصدي للإباحية الغربية والزواج المدني والإلحاد والمشروع التبشيري بمدارسه وجمعياته الخيرية وعناوينه الكثيرة.

واتخذا الثلاث الكبار أرض الحج وطريق الحج ملاذا وكان السابق السيد / أحمد التجاني المتوفي في سبتمبر 1850 والشيخ احمد الطيب البشير المولود 1158ه– 1742 م والمتوفي 1239 هـ – 1823 م أسهم الثلاثة التجاني وبن إديس وابن البشير في تشكيل الخريطة الروحية للسودانيين الشرقي والغربي كما دشنوا خريطة طريق جديد للعمل الروحي تقوم على جعل التصوف مؤسسة في قمة هرمها الشيخ المؤسس ثم خلفائه ثم المدمين ثم التابعين من الحوار بين الحوار مما أكسب العمل الصوفي الحركة الجماعية والإنتشار المنظم والبعد الحركي التنظيمي عبر التسلسل الهرمي .

وكان ثلاثتهم يؤمنون بمشروعية الخلافة العثمانية ، ويتعاطفون منعها ، في وقت أشتد فيه وجع الخلافة وكثرة الحركات الخارجية عليها ، الأمر الثاني المشترك بين ثلاثتهم سعيهم لإيجاد المسلم الذاكر بالتربية والتلقين والأوراد والأحراب والذكر بالقلب واللسان والحب الخالص ، كما طعموا تعاليمهم بالحكمة أينما وجدت عند ابوالحسن الشاذلي وتلامذته أو عند متصوفة آسيا الوسطي كما هو الحال مع جلال الدين الرومي أو الطريقة البكتشاية أو القادرية أو النقشبندية ، واستعاونوا بالمديح النبوي والشعر الصوفي تعبيرا عن الشوق والوجد والفروق وبشروا بالفتوحات الروحية مع وجود فوارق بسيطة هنا وهناك.

ومن صلب التجانية خرج الجهاد الفوتي ومن صلب السمانية خرج الجهاد المهدوي ومن صلب تعاليم ابن إدريس جاء جهاد السنوسية وجهاد مهدي الصومال– علما بأن رئاسة

الطريقة في الحالات الثلاثة كانت ضد العنف والمقاومة ، باستثناء الحالة السنوسية ، كما أن قادة الطريق كانوا مع الفتوحات الروحية والتربية ، ربما إدراكا للفارق بين قدرات المسلمين وآليات التدمير والبطش التي كان يملكها الآخر المستعمر بجيوشه واساطيله ، ولذلك ركز ثلاثتهم على التعليم والدعوة والجهاد السلبي جهاد النفس لحفظ الصيرورة الإسلامية وبقائها.

خرج ابن ادريس عام 1798م إلى الحج ولم يعد مرة أخرى إلى داره ، وانقطع مابين مكة والحجاز ومصر واليمن 52 عاما في التأسيسي لمدرسته التي تخرج منها الميرغني الكبير والسنوسي الكبير بالإضافة إلى مدارس صوفية أخرى على إمتداد العالم الإسلامي أما السمانية فقد أصبحت الأوسع إنتشار في السودان تليها القادرية والتجانية وتعود مشكلة كل هذه الجماعات إلى تجربة الحج وطريق الحج ولعل آخر تجربة مكتوبة كطريق الحج هي تجربة الشيخ عبدالمحمود نوالدئم في عام 1712 وهناك ورقة كاملة في هذا الموضوع .

انخفض عدد الحجيج في القرن التاسع عشر رغم بروز هذه الثلاثي المبارك بفعل الاستعمار ففي مرحلة لم يك في تمكبتو سوي 6 حجاج كما انحطت أوضاع الثقافة الإسلامية ، وأصاب الخلافة العثمانية الضعف والتفكك كما اصبح عدم الإستقرار وانعدام الأمن من سمات المرحلة – ولعنا نحتاج لورقة إضافية في هذا المجال ، كما أن رواد المهدية في السودان لا محمد أحمد المهدي ولا خليفته ولا خلفائه أدوا فريضة الحج: لا قبل الدعوة للجهاد المهدوي ولا بعده وهذا كذلك يحتاج لورقة تبين لماذا لم يفكروا في الحج كما فعل قادة السمانية مثلا – فالشيخ أحمد الطيب أدى الفريضة وعمره 16 عاما بينما الإمام المهدي حتى بلغت الأربعين لم يفكر في الحج وربما نجد له العذر في مرحلة الجهاد. والله أعلم